النشاط الصحفي لعبد الحميد بن باديس في الجزائر
١٩٢٥ – ١٩٤٠

د. محمد بليل
أستاذ محاضر – قسم التاريخ
جامعة ابن خلدون – تيارت
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

عرفت الجزائر في بداية القرن العشرين نهضة أدبية وثقافية وحركة إصلاحية ذات مرجعية إسلامية متأثرة بالنهضة الإسلامية في المشرق، ساعدتها في ذلك عوامل عدة، من أبرزها النشاط الصحفي الذي أثّر على نخب عديدة في الجزائر، ومن بينها النخب الدينية السلفية التي ينتمي إليها عبد الحميد بن باديس، رائد النهضة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، الذي أتخذ من منابر المساجد الحرة وسيلة لإبلاغ رسالته الدعوية والحضارية للشعب الجزائري، ونظرًا للمضايقات الاستعمارية له في هذه المنابر، لجأ إلى وسيلة أخرى؛ تمثلت في العمل الصحفي وكتابة المقالات الأدبية والدينية والفكرية والسياسية من أجل إيقاظ الهمم، وبعث روح التعليم لدى الجزائريين المسلمين وإبعادهم عن خطر الجهل، داعيًا لرسالة الإسلام التي تدعو للعلم والتحرر من التخلف والخرافات التي أضحت سمة عهده، وراح يساهم في الصحف القريبة من أفكاره ويؤسس أخرى، حسب ما تسمح به القوانين الاستعمارية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٨ أكتوبر ٢٠١٣
تاريخ قبـول النشـر: ٩ يناير ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الصحافة العربية، الطرقيين، الحكومة الفرنسية، الحركة الإصلاحية، الصحافة الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد بليل. "النشاط الصحفي لعبد الحميد بن باديس في الجزائر ١٩٢٥ – ١٩٤٠"- دورية كان التاريخية- العدد السابع والعشرون؛ مارس ٢٠١٥. ص ١١٢ – ١٢٤.

مُقَدِّمَةْ

عَرفت الساحة الثقافية والإصلاحية، ظهور شخصية بارزة في الجزائر تدعو الجزائريين بالعودة لدينهم الصحيح وتاريخهم المجيد؛ محاولاً إحياء تراث الأجداد ورافضًا سيطرة الثقافة الفرنسية والمتأثرون بها، خاصةً دعاة الإدماج ودخل في صراع مع الطرقيين وواجه سياسة فرنسا الاستعمارية. ولهذه الغاية سوف نعالج في هذه الدراسة المتواضعة، إشكالية النشاط الصحفي عند العلامة ابن باديس وأهميته في تلك الفترة، ونحاول أن نحلل أرائه مذهبه في الصحافة، ونعالج المواضيع التي تناولها في بعض الصحف التي أصدرها وأشرف على تسييرها، وأيضًا الأساليب والتقنيات التي اتبعها في ذلك، بهدف إيصال خطابه إلى النخب الجزائرية وعامة الشعب الجزائري.

(١) نظرة عامة عن الصحافة في الجزائر خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

تعتبر الصحافة همزة وصل بين المثقف والمفكر والناشط السياسي وغيرهم من كتاب الصحف وبالتالي "فالصحافة تتفاعل مع الجمهور العريض من مثقفين وقُرَّاء عاديين، وبذلك فالصحافة كوسيلة تمارس التغيير والتأثير بأشكال متعددة في حياة الناس كانوا حكامًا أو محكومين"، وأصحاب هذه الصحف يحملون قناعات وأيديولوجيات مختلفة.[١] وتطورت الصحافة في أوربا منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر مع إنشاء مطبعة "غوتونبارغ" وارتقت خلال القرن التاسع عشر ليصل صداها للبلاد العربية والإسلامية وتصل إلى الجزائر مع وصول طلائع جنود الاحتلال الفرنسي للجزائر بصدور أول جريدة موجهة لجنود الاحتلال

"الإسطافات"، ثم نشأت جرائد رسمية كالمونيتار، والمبشر، والأخبار فيما بعد.[٢]

وفي تحليلنا لتطور الصحافة في الجزائر، فإنه يصعب علينا تعيين تاريخ محدّد لظهور الصحافة، إلا أن المؤكد أنها رافقت دخول الاستعمار، فقد استعملها الفرنسيون المعتدون لتبليغ القوانين والتشريعات والأوامر الإدارية إلى الشعب الجزائري، كما عنيت تلك الصحافة بإظهار سمعة فرنسا وما لها من الفضل على العرب والمسلمين من جهة، وادعاء التفوق الحضاري الأوربي على المسلمين،[٣] وظلّت الصحافة الاستعمارية على هذا الخط فترة طويلة، وحرصت فرنسا الاستعمارية منذ أن وطأت أقدامها أرض الجزائر على العمل بمختلف الوسائل للقضاء على خصوصيات وتقييد الشعب الجزائري العربي المسلم بهدف إدماجه وإخضاعه لثقافتها، "ولما كان الإعلام يمثل الأداة المناسبة لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة، سخرت السلطات الفرنسية مختلف وسائل إعلامها إلى جانب وسائل أخرى لتنفيذ هذه السياسة الرامية للقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية".[٤]

ولهذا الغرض قامت فرنسا أيضًا منذ البداية بتأسيس بعض الجرائد الرسمية وأخرى بالعربية موجهة للجزائريين والأوربيين بهدف طمس المعالم الحضارية للجزائريين والسماح بمجموعة من النخب الفرنسة ذات الاتجاهين اليميني واليساري بنشر أفكار معادية لثقافة الجزائريين وثقافتهم العربية الإسلامية أمثال جرائد "المبشر" سنة ١٨٤٧، التي كانت تصدر الأوامر الرسمية، وأيضًا جريدة "الأخبار" وهي صحيفة أسبوعية تأسست سنة ١٨٣٩، وفي سنة ١٩٠٩ أصبحت تصدر باللسانين، وقد استمرت إلى غاية ١٩٣٤ وهما جريدتان كانتا ذات طابع حكومي أكثر منها تثقيفي،[٥] وجرائد موجهة "للأهالي" الجزائريين مثل جرائد المنتخب التي صدرت سنة ١٨٨٢ بهدف دفع الأهالي للدفاع عن أنفسهم من قبل مديرها السيد "بول إتيان" بمشاركة من مجموعة من أعيان قسنطينة.

وكانت هذه الصحف تعبر عن الوجهة الرسمية للإدارة الفرنسية وطموحات بعض الأوربيين الساعيين إلى إبراز مكانة فرنسا في الجزائر، إلى غاية ظهور بعض صحف الأهالي المعبرة عن قناعة القبول بهذا المستعمر، محاولة منها الدخول معه في سباق نحو إدماج الجزائريين في المنظومة الثقافية الفرنسية، حيث ظهرت صحيفة "الحق" في مدينة (عنّابة) سنة ١٨٩٣م بالفرنسية، ثم في سنة ١٨٩٤م بالعربية، ثم جريدة المغرب" سنة ١٩٠٣م، وكانت تسعى إلى التأليف بين الأهالي وبين الأمة الفرنسية، وكان جُل الكتّاب في هذه الصحيفة جزائريين، منهم الشيخ عبد القادر المجاوي، والشيخ عبد الحليم بن سماية، وغيرهم من المثقفين الذين عُرفوا باتجاههم الإصلاحي.

وأيضًا جريدة "النصيح" التي صدرت سنة ١٩٠٧ وفي سنة ١٩٢٢ أسس مجموعة من اليساريين جريدة "لا فوا دي زامبل" (Vois de humbles)، وبذلك نعتقد أن الصحفيين الجزائريين الأوائل حاولوا الدفاع عن الأهالي الجزائريين من خلال القوانين الفرنسية بواسطة جملة من المطالب الإصلاحية، حيث نجد الأستاذ زهير إحدادن يحلل لنا هذه الصحافة في بدايتها موضحًا خصوصياتها والظروف التي نشأت فيها.[٦] ومن جهتها حللت دراسات أخرى هذا المنعطف الصحفي منذ بدايته مركزة على الاتجاه الإصلاحي الأول المزيج ما بين الثقافتين العربية والفرنسية قبل أن ينقسم على نفسه في أعقاب الحرب العالمية الأولى بين تيار الشباب المثقف ثقافة فرنسية وتيار التقليديين والمحافظين،[٧] أو كما يسميهم المؤرخ الفرنسي "أجرون" بأصحاب العمائم.[٨]

ومن جهتهم أصدر المعمرون مجموعة من الجرائد تعبر عن هويتهم العنصرية وأفكارهم الاستيطانية، أمثال إيكو دالجي، وإيكو دوران، وبوتيت تلمسانيان، وديباش كنوستونتينوا، ورفاي ماسكارا، وعين الصفراء المستغانمية، وأسسوا أيضًا جرائد محلية في القرى والمدن ليدافعوا عن مصالحهم. وأيضًا قام بعض الفرنسيون المتحمسون لإدماج الجزائريين في الثقافة الفرنسية والدفاع عنهم بتأسيس عدة جرائد فرنسية مزدوجة اللغة أمثال، الإسلام سنة ١٩٠٩ وكوكب إفريقيا سنة ١٩٠٧ المعربة، والفاروق سنة ١٩١٣، الراشدي سنة ١٩١٩، إضافةً لجرائد أخرى ذو الفقار والبريد، وهي كلها نماذج لصحافة الأهالي التي حاولت أن تعبر عن انشغالات النخب المثقفة ثقافة فرنسية، وحاولت أن تبرز مطالب الجزائريين ضمن الثقافة الفرنسية، ولكن معظمها فشل بسبب الأوضاع المتدهورة لتلك النخب التي لم تستطع مواصلة المشوار، بسبب عراقيل الإدارة الاستعمارية.[٩]

ويرى الأستاذ إحدادن أيضًا في تحليله لهذه الصحافة، بأنها "قد لعبت دورًا بارزًا في يقظة الجزائريين واعتمدت على عدة ركائز منها:[١٠]

- التنظيم السياسي والاقتصادي والعسكري في تكوين المناضلين، وإنشاء الجمعيات والأحزاب.
- المساهمة في العملية التعليمية – إنشاء المزيد من الصحف رغم الصعوبات والعراقيل.

ووضح كذلك إحدادن في فصل له في مؤلفه صحافة الأهالي منذ ١٨٣٠ إلى ١٩٣٠ أهم صحف الأهالي الأولى كالحق والإكلار (البرق) التي جاءت محل الحق الممنوعة، والمصباح للعربي فخار،[١١] وعرفت نشاطًا صحفيًا قويًا لتأثر في مختلف النخب بمختلف اتجاهاتها، بما في ذلك صحافة الاتجاه العربي الإسلامي التي واصلت المسيرة والدفاع الحقيقي عن هوية الجزائريين ووجدت صحفهم صدى في أوساط المسلمين الجزائريين.[١٢] وبعد هذا التمهيد عن تطور الصحافة في الجزائر، مند قدوم فرنسا الاستعمارية إلى الجزائر وقيامها بالقضاء على مختلف مقوماته، سيحاول الجزائريون المتشبعون بالثقافة العربية والإسلامية، تجريب الأسلوب الصحفي كطريق واضح المعالم لمواجهة فرنسا الاستعمارية بنفس أسلحتها.

(٢) واقع الصحافة العربية الإسلامية في بداية القرن العشرين

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، سمحت الإدارة الاستعمارية بإنشاء الجرائد والصحف بمختلف اتجاهاتها وفق قانون١٨٨١، لذي سمح بحرية التعبير وفرض شروطًا قاسية على صحافة الجزائريين باللغة العربية واعتبرها أجنبية، في حين تغاضى الطرف قليلاً على صحافة الجزائريين باللغة الفرنسية، راميًا من ذلك تشجيع سياسة الإدماج، لكنه اعتبر كلا النوعين خطرًا على وجوده، مما يجعلنا نحاول تتبع تطور الصحافة العربية الإسلامية في الجزائر بشكل موجز لارتباطها بالنشاط الصحفي لعبد الحميد أبن باديس وأهم العراقيل التي واجهتها، ثم نعرج فيما بعد لنشاط ابن باديس وتجربته الإعلامية من سنة ١٩٢٥ إلى غاية وفاته، حيث تناولت دراسات عديدة النشاط الصحفي لابن باديس منها: مراد علي، وعمار هلال، ومحمد الميلي، وسعد الله وقداش، وزهير إحدادن، وغيرها من المقالات التي وردت في جرائد ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كالشهاب والبصائر الأولى.

ومن هذا المنطلق نستخلص بأنه "كانت المناشير أهم وسيلة إعلامية في تلك الفترة، حيث اختار ابن باديس وجمعية العلماء الكلمة الصائبة، والدعوة المركزة، والخطاب الديني الصحيح والصريح، وكان الإعلام في هذه الفترة أداة لنشر اللغة العربية والإسلام ودفاعًا عن هوية الأمة،[١٣] فحسب تصريحات ابن باديس نفسه في مقالاته المتعددة، التي سنرجع لنماذج منها في تحليلنا لهذه الوسيلة الهامة التي اعتمد عليه العلامة ابن باديس في هذه المرحلة، التي عرفت تطورًا ونضجًا لدى النخب الجزائرية وباتت تستخدمها للتعريف بأفكارها ومبادئها ومخاطبة ضمير الأمة الجزائرية، وتنبيه الإدارة الاستعمارية بوجود الأمة الجزائرية. وتشير العديد من الدراسات لميلاد الصحافة العربية بشكل قوي، رغم المشاكل المالية ورقابة السلطة الاستعمارية، حيث ظهرت مثلاً في بدية القرن العشرين، جريدة كوكب إفريقيا المعربة لصاحبها محمود كحول، وعرفت مقروئية ملحوظة، مما يفسر لنا تزايد القُرَّاء بالعربية رغم القيود الاستعمارية التي فرضت على التعليم العربي، ثم تبعتها الإقدام المزدوجة اللغة، حيث حاول الأمير خالد الرجوع لتراث أجداده، ثم ظهر صحافيون كبار لا يخشون القوانين الفرنسية أمثال عمر بن قدور، وعمر راسم، وفيما بعد شيوخ التيار الإصلاحي، وعلى رأسهم ابن باديس، وفي السياق نفسه قامت بعض الطرق الصوفية بتحديث أساليبها؛ فأنشأت المطابع وأصدرت الصحف أمثال الطريق العلوية في مستغانم.[١٤]

وقد ارتبطت هذه النهضة الصحفية التي اعتمدت على اللغة العربية وصحافيين معربين أو يحسنون اللسانين بالنهضة الإسلامية في المشرق، وبروز تيار ديني قوي لازم الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر؛ التي تأثرت بالفكر السلفي لمحمد بن عبد الوهاب الحجازي وتيار الجامعة الإسلامية في المشرق بزعامة الأفغاني وعبده وبمباركة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وبالتالي بروز صحافة ذات توجه إسلامي قوية تخاطب الجماهير المسلمة التي حرمت من ثقافتها لعقود عديدة. إذن فقد ظهرت هذه الصحافة المعروفة بالصحافة الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر، وازدهرت في بداية القرن العشرين، مستغلة الظروف الداخلية المهيأة في ظل الحاكم العام "جونار"، ثم "فيولات" الذين حاولا مساعدة الأهالي بالاندماج في الثقافة الفرنسية والسماح لهم بإنشاء الجرائد، إضافة للعوامل الخارجية المتمثلة في دعاية الجامعة الإسلامية والنهضة الفكرية والصحفية في المشرق الإسلامي، إضافةً لظهور حركة إصلاحية بالعالم الإسلامي وزيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة ١٩٠٣، وكذلك الدعاية الألمانية، واندلاع الحرب العالمية الأولى ونتائجها التي أتت بإصلاحات فيفري ١٩١٩ من قبل جونار الحاكم العام، وكليمنصو رئيس وزراء فرنسا.[١٥]

ولهذه الغاية ظهرت أعداد من جريدتي الصديق والفاروق لعمر بن قدور، ثمّ صحافة التيار الإسلامي، وكذلك صحافة الزوايا وبعض المستقلين، حيث تمكن هذا النوع من الصحافة أن يكون ثقافيًا ولا يدخل مع الإدارة الاستعمارية في نزاعات مباشرة، وإنما يطالبها باحترام الخصوصيات الإسلامية للشعب الجزائري. وبذلك فقد تأثرت النخب الجزائرية ذات المرجعية الدينية بالنهضة الإسلامية في المشرق، خاصةً عبد الحميد ابن باديس، وعمر بن قدور، وعُمر راسم، والأمير خالد، وعمار مهري، وابن الموهوب، وقد كانوا في طليعة النخب الإصلاحية، وحاولوا تأسيس جمعية ثقافية إسلامية علمية، "وقد كان هذا الاتجاه سياسيًا أكثر منه دينيًا أو إصلاحيًا، وكانت حركة متطورة استعملت الصحافة في الداخل والخارج والعرائض وإرسال الوفود للمطالبة بالحقوق، حسب شهادة الأستاذ "بن العقون".[١٦]

وفي اعتقادنا إن الصحافة الإسلامية في الجزائر، تأثرت بعدة منظرين أمثال الشيوخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، وتمّ نشر هذه الأفكار الشيخين محمد بن مصطفى بن الخوجة، والشيخ عبد الحليم بن سماية، الذين تأثرا بمجلة المنار، وأيضًا بأفكار الجامعة الإسلامية، وفي هذه الظروف ظهرت شخصية ابن باديس، منطلقة من "النشاط الدعوي بالمساجد كمرحلة أولية، ثم الانشغال بالعمل الصحافي لإيصال صوت الجزائر المسلمة إلى أصحاب القرار في الإدارة الاستعمارية بالجزائر".[١٧]

(٣) ابن باديس الصحفي (١٩٢٥ ـ ١٩٤٠)

يعتبر الشيخ عبد الحميد ابن باديس من الشخصيات الإصلاحية الهامة في الجزائر والعالم العربي الإسلامي، نظرًا لمستواه العلمي الرفيع وحنكته السياسية المعتدلة، ومساهماته الصحفية في العديد من الجرائد والصحف الصادرة ما بين الحربين العالميتين، وقوّة حجته في مخاطبة معارضيه وصراحته المدوية اتجاه الإدارة الاستعمارية، وتمكن بواسطة أسلوبه الصحفي أن يؤثر في العديد من الأحزاب الجزائرية الناشئة آنذاك، ويلعب دور الوسيط بين

الجمعيات السياسية الجزائرية بتصوراته وأفكاره الوحدوية، وفق منهج مدروس دون أن يكلّ أو يفشل في إيصال أفكاره للآخرين؛ مما جعل استعلامات الإدارة الفرنسية تلاحقه وتكتب عنه التقارير المختلفة وتحلل مقالاته وترسلها إلى أعلى مسؤوليها.[١٨] ولذلك سوف نتعرف على هذه الشخصية الجزائرية ومدى مساهمتها الصحفية خلال الفترة الاستعمارية، وأساليب الكتابة عندها، ومدى انضباط ابن باديس في الحركية الإعلامية خلال هذه الفترة.

١/٣- التعريف بابن باديس

عبد الحميد بن باديس هو رائد النهضة الجزائرية من منطقة قسنطينة، وقد وهب حياته في خدمة الجزائر وكرّس حياته في العلم والمعرفة وباتصالاته بكبار العلماء، وقد ولد في نهاية القرن التاسع عشر من أسرة قسنطينية أمازيغية معروفة بالعلم والثراء، تلقى تعليمه الأولي بمسقط رأسه في الكتاب، ثمّ تتلمذ عل يد حمدان لونيسي ما بين سنتي (١٩٠٣) و(١٩٠٨)، وأكمل تعليمه في جامع الزيتونة في تونس ما بين (١٩٠٨)، و(١٩١١)، وأحرز على الشهادة العالمية (التطويع) سنة ١٩١٣.[١٩] وفي الزيتونة تفتحت أفاقه ونهب من العلم ما تيسر له منه، والتقى بالعلماء الذين كان لهم تأثير كبير في شخصيته وتوجهاته، مثل الشيخ محمد النخلي الذي غرس في عقل ابن باديس غرسة الإصلاح وعدم تقليد الشيوخ، وأبان له عن المنهج الصحيح في فهم القرآن. كما أثار فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حب العربية وتذوّق جمالها، ويرجع الفضل للشيخ البشير صفر في دفع الإمام ابن باديس بالاهتمام بالتاريخ ومشكلات المسلمين المعاصرة وكيفية التخلص من الاستعمار الغربي وآثاره.

وخلال رحلته المشرقية قام بأداء فريضة الحج ومكث في المدينة المنورة ثلاث أشهر، ألقى خلالها دروسًا في المسجد النبوي، والتقى بشيخه السابق حمدان لونيسي وتعرف على رفيق دربه ونضاله فيما بعد الشيخ البشير الإبراهيمي. وكان هذا التعارف من أنعم اللقاءات، فقد تحادثا طويلاً عن طرق الإصلاح في الجزائر واتفقا على خطة واضحة في ذلك. وفي المدينة اقترح عليه شيخه لونيسي الإقامة والهجرة الدائمة، ولكن الشيخ حسين أحمد الهندي المقيم في المدينة أشار عليه بالرجوع للجزائر لحاجتها إليه. وزار ابن باديس بعد مغادرته الحجاز بلاد الشام ومصر واجتمع برجال العلم والأدب وأعلام الدعوة السلفية، وزار الأزهر ثم رجع إلى الجزائر سنة ١٩١٣، واستقر في مدينة قسنطينة، وشرع في العمل التربوي الذي صمم عليه، وكرّس طاقته ووجهها لإصلاح الممارسات الدينية السائدة في البلاد.[٢٠]

وقد تطورت الحركة الإصلاحية في الجزائر ما بين الحربين العالميتين، بفضل ما بذله ابن باديس ومجموعة من أتباعه الأوفياء، من قدامى تلاميذه ومن رفاق له تلقوا في معظمهم تكوينهم بتونس أو في الشرق الإسلامي. وقد استرشدت هذه الحركة بفكر ونشاط محمد عبده ورشيد رضا، وبأفكار الحركة الوهابية المتشددة في أحيان كثيرة، حيث أخذت عنهم عديد الأفكار والممارسات.[٢١] قام الأستاذ "مراد" بتحليل شخصية ابن باديس وتأكيد ما سبق لنا ذكره، حول أسباب ميله للاتجاه الإصلاحي ودعوته لهذه المبادئ، ويذكر أنه استخلص العديد من خصوصيات شخصيته من كتاباته الصحفية في جريدة الشهاب،[٢٢] حيث تناول ابن باديس جزئيات من ماضيه الدراسي وذهابه إلى الحج ولقائه بشيخه حمدان لونيسي، وكان تأثيره عليه شديدًا، خاصةً أفكاره التحررية من كل القيود، ماعدا تعاليم الإسلام الصحيحة والشخصية الثانية التي التقى بها قرب حلوان بمصر أثناء عودته من الحجاز، كانت شخصية الشيخ والعالم "بخيت" صديق شيخة حمدان والذي قدم له إجازة على شكل شهادة علمية، عندئذ رجع إلى قسنطينة وأسس فريقًا صحفيًا لأول جريدة له تمثلت في المنتقد.

وقد تمثلت المحاور الكبرى للدعوة الباديسية في التربية والإصلاح بواسطة التعليم، وتبليغ أفكاره الجديدة ومبادئه الإصلاحية بواسطة الصحافة، حيث لم يتبع الطرق التقليدية للصحافيين المسلمين بذكر الأحداث وأعمال الإدارة الاستعمارية، وإنما وجّه خطابًا واقعيًا دينيًا وسياسيًا لجماهير المسلمين مقتنعًا بأفكاره ومبادئه الإسلامية، وطرح في نظرنا إشكالية الهوية العربية الإسلامية وإرساء هذه الثقافة وإعادة إحيائها في مواجهة خطر فرنسة المجتمع الجزائري، فهي إذن حسب "مراد" نظرة واقعية معتدلة ووطنية تنتمي للطريقة المحمدية، حيث أثر بواسطة هذه الدعاية الصحفية على الجماهير المسلمة.[٢٣]

٢/٣- نشاطه الإعلامي وأنشطته الصحفية (١٩٢٥ – ١٩٤٠)

كان ابن باديس شغوفًا بقراءة الصحف والمجلاّت العربية كالمنار للإمام رشيد رضا، ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب، وجريدة المؤيد واللواء، والجرائد الفرنسية لاديبيش دوكونستونتين ولوتو. وعن هذه الصحف الأخيرة يذكر ابن باديس بأنه لا ينكر إعجابه بالصحافة الفرنسية الكبرى، ومالها من بديع نظام، ومهرة أقلام وجرأة وإقدام، وكان على يقين بالدور الفعّال الذي تمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار، وهذا ما جعله يؤسس مطبعة ويصدر جرائد لتحقيق هذه الأهداف ودعم نشاطه التربوي خارج المسجد.[٢٤] فالشيخ عبد الحميد بن باديس كان صحفيًا، وكل السجلات الفرنسية التي تتحدث عن الشيخ تسميه صحفيًا، ولم يكن رجل دين فقط، بل شحذ قلمه وفكره لنشر مبادئه الإصلاحية من خلال الصحافة، وكان له الفضل في تطوير الصحافة العربية الإسلامية والمساهمات الأولى في جرائد النهضة الإصلاحية في الجزائر.

وقد كانت تجربته الأولى مع "جريدة النجاح"، بعد ما استلهم أفكاره الأولى من النهضة الإسلامية بالمشرق واطلع على الجرائد العربية الأولى كجريدة "الجزائر" لعمر راسم، وجريدة الفاروق لعمر بن قدور، وبالتالي فجريدة النجاح التي عرفت رواجًا وكانت بداية عهدها إصلاحية بامتياز قبل أن تنقلب على عقبها في مرحلة لاحقة

وتصبح تسير في ركب الإدارة الاستعمارية.[٢٥] ولذلك كانت أنشطة ابن باديس الصحفية الأولى في جريدة النجاح العربية، التي صدرت في سنة ١٩١٩ رفقة مطبعة ومكتبة في مدينة قسنطينة، وقد ساهم ابن باديس فيها نظرًا لطبيعة خطها الأول المبني على الوطنية والإصلاح، وكان مؤسسها عبد الحفيظ بن الهاشمي من منطقة "طولقا"، وعاد تحريرها للصحفي السيد "إسماعيل مامي" من الكوادر الصحفية الأولى الجزائرية التي عملت في جريدة المبشر الحكومية؛ وقد استبشر العلماء والأدباء والمفكرون خيرًا بها وشاركوا في تحريرها، وعلى رأسهم شيخنا ابن باديس الذي كان يكتب باسمه الصريح والمستعار "القسنطيني"، و"العبسي".[٢٦]

ومن هذا المنطلق؛ فإن ابن باديس كانت علاقته الصحفية مع فريق النجاح متينة في بداية عهدها، ما لبث أن انقطع حبل المودّة بينهما نظرًا لبعض الخلافات حول خطها التحريري الذي أصبح يميل للمهادنة مع الإدارة الاستعمارية، رغم أنه كان من أوائل الصحفيين المتحمسين للكتابة فيها، حيث فكّر بالاستقلال في المجال الإعلامي، دفاعًا عن مبادئه الإصلاحية الثورية في مرحلة ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى متأثرًا على ما يبدو مما كانت تكتبه الإقدام للأمير خالد، والنهضة الثقافية المتصاعدة لدى النخب الجزائرية، وأضحى مرشد الحركة الإصلاحية في الجزائر يتمتع بثقة بعض أنصاره الشيوخ وتلامذته الأوفياء أمثال البشير الإبراهيمي، ومبارك الميلي، وتوفيق المدني، وآخرون،[٢٧] مما دفعه إلى التفكير في إنشاء المطبعة الإسلامية وتأسيس أولى صحفه التي تنطلق من خطه الإصلاحي والوطني.

قام بتأسيس الصحف وإدارتها، حيث اكتسب ابن باديس مهارات صحفية، إضافة لقناعته القوية بالعمل الإعلامي الصريح الذي يبحث عن الحقائق ويحاول إيصال أفكاره ومبادئه للشعب الجزائري، رافضًا السيطرة الاستعمارية التي حرمته من حقوقه التاريخية وضيقت عليه ممارساته الدينية وحاولت إدماجه في حضارة المستعمر مخالفة سنن الكون والمواثيق الدولية. لذلك سعى جاهدًا مع مجموعة من المحررين الأكفاء لدخول عالم الصحافة التي أعجب بها في بداية مشواره الإعلامي، وأسس مجموعة من الصحف وأشرف على إدارتها بمساعدة شخصيات بارزة، حيث كان له الشرف في إنشاء جرائد تعبر عن نهجه الإصلاحي وتعبر عن مبادئه ومواقفه من الإدارة الاستعمارية، وساهم في جرائد أخرى كانت تصدر عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وسنحاول أن نلمّ ببعض هذه الجرائد والصحف التي شكلت في نظرنا قوّة نشاطه الصحافي.

فكانت البداية الفعلية في الإشراف على الصحف، عند تأسيسه لجريدة "المنتقد" التي هدفت إلى تسليط الضوء على أخطاء المستعمر، حيث صدر العدد الأول في (٢ يوليو سنة ١٩٢٥م الموافق ١١ ذي الحجة سنة ١٣٤٣هـ) وذلك في مدينة قسنطينة، وكان شعارها "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء"، وتولى الشيخ ابن باديس رئاسة تحريرها وأسند إدارتها للشهيد أحمد بوشمال، وكان من كتابها الشيخ مبارك الميلي، والشيخ الطيب العقبي، رحمهما الله. وكانت تصدر صبيحة كل خميس وحظيت بمقرؤية معتبرة، نظرًا لأنها كانت تهتم بمواضيع الساعة والقضايا ذات التوجه الإصلاحي ودفاعها المستميت عن العروبة والإسلام،[٢٨] وحسب "سعد الله" فإن هذه الجريدة كانت متحررة وداعية للنهضة الوطنية بأسلوب واضح وحماس، وكانت أيضًا شديدة اللهجة وقاسية الأسلوب في مواجهة السياسة الاستعمارية الفرنسية،[٢٩] وأصبحت هذه الصحيفة منبرًا لتوجيه وتوعية الجزائريين، وقناة لنقد الوضع الاستعماري المفروض على الجزائريين، وصوتًا لمناصرة القضايا الكبرى للمسلمين في فترة العشرينيات، كثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي، ومساندة الشعب الليبي، مما جعل الإدارة الاستعمارية ترفض خطها التحريري وتوجهاتها السياسية المعارضة، فقامت بتعطيلها في العدد الثامن عشر من السنة نفسها.[٣٠]

وهكذا؛ كان لصحيفة المنتقد دورًا كبيرًا في عرض آراء ومقترحات عبد الحميد بن باديس، ولكنه لم ييأس ولم تكلّ عزيمته، وواصل طريقه من خلال الصحافة، فأصدر الإمام عبد الحميد بن باديس جريدة أخرى أسبوعية سمّاها "الشهاب" في (١٩٢٥/١١/١٢)، ثم حوّلها إلى مجلة شهرية، وكانت تحتوي على موضوعات عديدة منها الافتتاحية ومقالات، وفتاوى وقصصًا، وأخبارًا وطرائف وتراجم، وعرضًا للكتب وللصحف العربي والأجنبية، وتنشر مقالات للكتاب والشعراء العرب من مصر ولبنان وتونس والمغرب، وفي السنوات الأولى، كتب ابن باديس معظم المقالات وقام بتصميمها وكان يوزعها بنفسه. وكانت لهذه المجلة شهرة واسعة في العالم الإسلامي وشهد بفضلها كبار العلماء والمصلحين. وكتب فيها الإمام حسن البنا (١٩٠٦- ١٩٤٩) في افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب التي أسسها في القاهرة في نهاية الأربعينيات كلمة تقدير وجهها للإمام عبد الحميد بن باديس قائلاً: "قامت مجلة الشهاب الجزائرية التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد، مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد (ﷺ)..."، وكتب أيضًا في السياق نفسه المفكر السوري الدكتور محمد المبارك في مجلة المجمع العلمي الدمشقية أنه "كان يطالع في شبابه في الثلاثينيات مجلة الشهاب الجزائرية التي تصل إلى دمشق مع مجموعة من أصدقائه الطلبة بلهفة شديدة...". وعن تأثيرها في المغرب، يقول الشيخ محمد غازي أحد علماء فاس "مجلة الشهاب الغراء، خدمت الإسلام والمسلمين عمومًا والإصلاح والمصلحين خصوصًا".[٣١]

وصار ابن باديس رائدًا من رواد الصحافة العربية الحديثة في ما بين الحربين، وأرسى دعائمها على أسس متينة من الإيمان والوطنية من خلال الصحافة الأصيلة المجاهدة والمدافعة عن

المسلمين الجزائريين. وبذلك لعبت مدرسة الشهاب دورًا بارزًا في تحريك النهضة السياسية في الجزائر حسب ما يذكر "مراد" وآخرون[٣٢] عن هذه التجربة الإعلامية لابن باديس، وهو ما أقلق الإدارة الاستعمارية، ولكن الشهاب كانت هذه المرّة أكثر دبلوماسية، ولم تدخل في صراع مع الإدارة الاستعمارية، وهو ما يفسر لنا حنكة هذه الشخصية الإصلاحية وتمرسها في العمل الإصلاحي وتدريبها لصحافيين من جمعية العلماء التي تأسست في (٠٥ مايو ١٩٣١) من قبل نخبة من العلماء الجزائريين الذين سيكملون مسيرة ابن باديس ويتربون على يديه في فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، باعتبارها فترة نمو الصحافة العربية الإسلامية.[٣٣] وقد عطلّ ابن باديس بنفسه هذه الصحيفة بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، لكي لا يقف موقفًا محرجًا من السياسة الاستعمارية ويقوم بنشر موقف ابن باديس من الحرب، حيث رفضت جمعية العلماء بأغلبية أعضائها الوقوف إلى جانب فرنسا، ولذلك نستخلص بأن الشهاب كانت تعبر عن المدرسة الإصلاحية لابن باديس ولم تكن تعبر عن مواقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

شارك ابن باديس عبر مساره الإعلامي في تحرير الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث أصدرت أربع جرائد: هي "السنة النبوية المحمدية" التي صدر عددها الأول في (٣ أبريل ١٩٣٣م)، و"الشريعة المحمدية" صدرت بعد توقيف جريدة السنة في أعدادها السبعة سنة ١٩٣٣ وتوقفت (٢٨ أوت ١٩٣٣م)، و"الصراط السوي" صدرت في سبعة عشر عدد ما بين (١١ سبتمبر ١٩٣٣م) إلى غاية (٠٨ جانفي ١٩٣٤م)، وكل هذه الجرائد لم تعمر طويلاً؛ فقد أوقفتها الإدارة الفرنسية.[٣٤]

وتذكر جريدة البصائر الأولى، تعسف الإدارة الاستعمارية في غلق جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الثلاثة وتواصل نشاطها الصحفي بمعية رائد النهضة الإصلاحية في الجزائر بإنشاء جريدة جديدة تتحدث باسمه وبمشاركة ابن باديس القوية، الذي سيعمل على تجنيب هذه المجلة تعسف فرنسا اتجاهها.[٣٥] وبالتالي فـ "البصائر" في سلسلتها الأولى (١٩٣٥-١٩٣٩م) وهي الجريدة الوحيدة الهامة التي كانت تنطق باسم الجمعية خلال حياة ابن باديس وبعد وفاته في (١٦ أبريل من سنة ١٩٤٠) ظلّت بعد وفاة الشيخ ابن باديس، تعبر عن النهج الإصلاحي وتدافع عن موقفها الصريح الذي عبرت عنه في العدد الافتتاحي لمجلة البصائر في سنة ١٩٣٥ موضحة، إن خطتنا التي نسير عليها فهي الخطة الأزمة والمبينة في جرائد جمعية العلماء السابقة، وتوضح القارئ الكلمة القيّمة للشيخ ابن باديس في جريدة الشريعة المعطلة التي قال فيها: "فما ينقم علينا الناقمون؟ أينقمون علينا من جمعية دينية إسلامية تهذيبية تعين فرنسا على تهذيب الشعب وترقيته ورفع مستواه إلى الدرجة اللائقة بسمعة فرنسا ومدنيتها وتربيتها للشعوب وتثقيفها للشعوب..."."[٣٦]

وقد واصلت مسيرتها في هدوء حذر من تصرفات الإدارة الاستعمارية، إلى غاية ١٩٣٩، ثمّ استمرت في الصدور من سنة ١٩٤٧ إلى غاية ١٩٥٦ خلال تزايد قوّة الثورة التحريرية فتم توقيفها من طرف المشرفين عليها حسب ما أعلن عليه المرحوم الشيخ علي مغربي وليس من طرف إدارة الاحتلال، إضافة لجرائد أخرى كانت تعبر عن المنهج الإصلاحي أنشأها مصلحون آخرون أمثال العقبي في "صدى الصحراء"، وجرائد أبو اليقضان المتعددة التي تعرضت للمنع والتعطيل، منها "وادي ميواب"، و"ميزاب"، و"الأمة"، و"النور"، و"البستان"، و"الفرقان"،[٣٧] وغيرها من الصحف الإصلاحية الأخرى التي ظهرت في هذه الفترة وكتب بعضها باللسان الفرنسي مثل جريدة "لاديفانس" أي الدفاع" للأمين العمودي العضو البارز في جمعية العلماء المسلمين والذي كان يقوم بنشر الأفكار الإصلاحية متنقلاً من مدينة إلى أخرى كصحفي مثل زيارته لمدن الغرب الجزائري منها مستغانم وغليزان حسب تقارير شرطة الاستعلامات الفرنسية.[٣٨]

هذه الجرائد الأخيرة، كانت لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس باعتباره رئيسًا للجمعية يكتب فيها كلها، وهو غالبًا ما يكتب الافتتاحية التي تتولى الدفاع عن الشخصية الجزائرية، أو الدفاع عن التعليم العربي الإسلامي، أو الرد على بعض المعارضين لتوجهاتها. وبذلك نخلص إلى أهمية الصحافة في منظور المصلح ابن باديس ووعيه لهذه الرسالة الإعلامية التي وظفها لخدمة الشخصية الجزائرية ومقومات الأمة الجزائرية التي حاولت بعض النخب الجزائرية إلغائها.

٣/٣- أنشطة ابن باديس الصحفية

ساهم ابن باديس في قضايا مختلفة كانت تخص الشأن الجزائري الداخلي، وحاول من خلالها التطرق بقلمه في إبداء الرأي والمواقف المختلفة التي شغلت الساحة السياسية الجزائرية ما بين الحربين العالميتين (١٩١٨ - ١٩٣٩). لذلك بدأ الإمام ابن باديس يتجه للصحافة كمجال ينفذ منه، بفكره إلى مساحة عريضة من الناس، تكون أقوى وأوسع انتشارًا من محاضراته في المسجد الأخضر، وقد يجد صوته صدى من خلال الصحيفة إلى نطاق أوسع من الجزائر، وفي نفس الوقت لا تتعرّض إلى طائلة المستعمر الفرنسي وبطشه، فعمل على استغلال أداة الصحافة لتبليغ رسائله المختلفة إلى الرأي العام وللإدارة الفرنسية وإلى معارضيه. وساهم بقلمه في الدفاع عن العديد من المسائل التي كانت من حق الشعب الجزائري المسلم وواقف ضد بعض الأيديولوجيات الهدامة لوجود الأمة الجزائرية، وساهم في الأنشطة السياسية إلى جانب التيارات الوطنية بمختلف اتجاهاتها من خلال تطرق صحافته لهذه القضايا، التي سنحاول أن نسلط الضوء على نماذج منها لنستطيع أن نصل لقوة النشاط الصحفي لابن باديس في هذه المرحلة كالآتي:

- الدفاع عن الهوية العربية الاسلامية

لقد قام ابن باديس منذ رجوعه إلى أرض الوطن بمحاولات إحياء التراث الإسلامي معتمدًا على تعليم اللغة العربية للجزائريين الذين حرموا منها مدة طويلة من خلال دروسه في المسجد الأخضر وتشجيع العلماء وعلى فتح مدارس عصرية ونوادي ثقافية تهتم بالثقافة الإسلامية، ولذلك ركز على التعليم المسجدي حسب ما جاء في تقارير سجل جمعية العلماء المسلمين ونشر في جرائد الشهاب والبصائر وغيرها موجها كلمة النصح بالاهتمام بتدريس العلوم الدينية الصحيحة في مواجهة الطرقيين الذين انكمشوا على أنفسهم، متكلين على الإدارة الاستعمارية التي باتت تسيطر على الشأن الإسلامي وهو ما رفضته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وذلك ما ذكره ابن باديس نفسه في سياق كلمته أمام مؤتمر الجمعية قائلاً: "لابد للجزائر من كلية دينية يتخرج منها رجال فقهاء بالدين يعلمون الأمة أمر دينها. وأستطيع أن أقول أن نواة هذه الكلية هم الطلاب الذين يردِون على الجامع الأخضر في قسنطينة من العمالات الثلاثة..."[٣٩]

ولذلك فابن باديس دافع عن تدريس اللغة العربية والإسلام بشكل جدي وحاول إصلاح ما فسد عند الناس من خلال صحافته بتحرير المقالات للدفاع عن الإسلام ضد الصليبية، وأكد على مكانة تعليم اللغة العربية، باعتبارها حصنا منيعًا في وجه الثقافة الإدماجية التي باتت بعض النخب المتفرنسة الجزائرية تلح عليها بضرورة تعلمها حتى بداخل المساجد، وهو الأمر الذي دافع عنه ابن باديس وطالب بضرورة احترام الخصوصيات الثقافية للشعب الجزائري واحتوت أعداد الشهاب مقالات عديدة لابن باديس تدافع عن اللغة العربية والإسلام لأنهما في اعتقاده ضمان حقيقي للهوية الجزائرية.[٤٠] ومن هذا المنطلق نعتقد أن الشيخ ابن باديس ركّز في مقالاته المختلفة المنشورة في جريدته الشهاب وجرائد الجمعية، على أسلوبًا تربويًا تعليميًا يربط المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله(ﷺ)، ويوثّق صِلاتهم بها؛ فقام بتفسير القرآن الكريم، وشرح السنة النبوية شرحًا علميًا منهجيًا في سلسلة اسمها "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، تناول فيها أيضًا الكثير من القضايا المعاصرة التي طُرحت في الساحة الفكرية بالعالم الإسلامي وأصدر الفتاوى حولها واستشار في ذلك علماء عصره.

وفي جريدة الشهاب تناول الباحث الجزائري تركي رابح، تحليل ما ورد فيها من موضوعات حول تمسك ابن باديس بالنهج الإصلاحي والدفاع المستميت عن العروبة و الإسلام،[٤١] موضحًا موقف ابن باديس الصريح اتجاه هذه المسألة معتبرًا الإسلام في الجزائر، جزء لا يتجزأ من الكيان الجزائري ويعتبره دين وقومية في وقت واحد، واعتبر ابن باديس أيضًا دفاعه عن هاتين المقومتين عملاً هامًا في وجه سياسة التحطيم الممنهج للسياسة الفرنسية للشخصية الجزائرية، فركّز على مفهوم الأمة الجزائرية مقابل الأمة الفرنسية التي بات بعض الجزائريين يتغنى بها. أما الأستاذ محمد الميلي،[٤٢] فقد أورد في مؤلفه مجموعة من المقالات التي وردت في أعداد كثيرة للشهاب والبصائر تتناول موقفي ابن باديس وجمعية العلماء من مسألة تركيز التيار الإصلاحي في الجزائر على هذين العنصرين الهمين في حياة الجزائريين من خلال ترسخهما في صفوف المجتمع الجزائري المسلم.

- الرد على بعض الطرقيين

تناولت صحافة ابن باديس موضوعًا حساسًا، كان أساس الخلاف ما بين العلماء الإصلاحيين ومشايخ الطرق الصوفية، التي تواجدت في بلادنا منذ الوجود العثماني وازدادت نفوذًا خلال المقاومات الشعبية في القرن التاسع عشر، ولكن أتباعها استكانوا للأمر الواقع وهادنوا الإدارة الاستعمارية وانكبوا على أنفسهم، وادخلوا بدعًا وسلوكيات بعيدة عن الإسلام، وبالتالي حاولوا التأثير بفلسفتهم تنويم الفئات الشعبية وإبعادها عن كل عمل سياسي يناهض الإدارة الاستعمارية وقاموا بانتقاد منهج العلماء المصلحين وأفهموهم بنقل أفكار الوهابيين إلى الجزائر وأنهم لا يخدمون قضية الشعب الجزائري، وبدون قصد قدموا أعمالاً جليلة للسياسة الفرنسية التي كانت تسعى منذ احتلالها للجزائر إلى جعل الجزائريين ينحرفون عن مبادئ دينهم الحقيقية وإبعادهم عن النهضة الإسلامية الجارية في المشرق الإسلامي.

وقامت الأجهزة الاستعمارية بتأسيس النشرات الإسلامية بتتبع الحركة الدينية في الجزائر وإصدار قراراتها الموجهة للعمل الإسلامي باعتبارها مسئولة عنه، وراحت تحلل تصورات ومواقف تلك الطرق والزوايا، وفي الوقت نفسه قدمت لنا تلك التقارير ما يرد في صحافة الطرفين المتصارعين من خلال ما ورد في جرائد البلاغ الجزائري ولسان الدين، وأيضًا ما يرد في الشهاب والبصائر، وتقوم هذه الأجهزة بتحليل دقيق لمضمون هذه المقالات وإصدار التعليمات القاضية بمناصرة الطرقيين على جمعية العلماء.[٤٣] ولذلك وجّه ابن باديس حملة كبيرة ضد بعض الطرقيين من خلال جرائده وأيضًا جرائد جمعية العلماء المسلمين، ذلك ما ورد بشكل صريح في الكلمة التي ألقاها البشير الإبراهيمي خلال انعقاد مؤتمر الجمعية سنة ١٩٣٥: "مبدأ جمعية العلماء المسلمين هو الإصلاح الديني بأوسع معانيه... وقد كان حال المصلحون مع الطرق ما علمه القارئ من الفصول السابقة، فلما تأسست جمعية العلماء لم يزيدوا على تلك الحال ولم ينفضوا منها لأن هؤلاء المصلحين لا يعملون مسالمين ومحاربين إلا عن إيمان وعقيدة، وعقيدتهم في الطرق هي أنها علة في الإفساد ومنبع الشرور، وإن كل ما هو متفش في الأمة من ابتداع في الدين وضلال في العقيدة وجهل بكل شيء وغفلة عن الحياة وإلحاد في الناشئة، فمنشئوه من الطرق..."[٤٤]

يتضح لنا من هذا السجال المتبادل بين جمعية العلماء وخطب ابن باديس مع رجال الطرق، أنها كانت حربًا قد فرضت على الطرفين بسبب الصراع الفكري الموجود بينهما من خلال ما كان يرد في صحافة الطرقيين كالبلاغ الجزائري ولسان الدين ومجلة المرشد

وغيرها من صحف جماعة الطرقيين، التي برعت في الدفاع عن توجهها وانتقاد المصلحين الذين جاؤوا بدين جديد حسب وجهة نظرهم، وتنكشف أمامنا عمق الخلاف من خلال هذه الصحافة والتي ازدادت احتدامًا بصدور صحف مناوئة لبعضها البعض مثل المعيار للطرقيين والجحيم للعلماء وبات الشتم والانتقاد الفادح هو شكل المواجهة بين الطرفين.[٤٥] ولكن كانت هناك محاولات من قبل ابن باديس، لتقريب وجهات النظر ما بين بعض مشايخ الطرقية والعلماء الإصلاحيين في أكثر من مناسبة، عند زيارته لها مثل ما حدث مع الزاويتين العلوية والسنوسية في مستغانم، رغم رفض العديد من بعض العلماء المصلحين لهذا التوجه الذي نعتبره في نظرنا أنه لم يكن يخدم قضية الإسلام أمام غطرسة فرنسا الاستعمارية، وكذلك أن كلا الطرفين حاولا الدفاع عن العربية والإسلام وهوية الشعب الجزائري من خلال قناعتهما الفكرية والعوامل التي أثرت فيهما.[٤٦]

- مواقفه السياسية المختلفة من السياسة الفرنسية المطبقة في الجزائر

إن المتتبع لمواقف ابن باديس السياسية المنشورة في الصحافة خلال الحقبة المدروسة، سيجد كمًا هائلاً منها، يتعلق بمواقفه المختلفة منذ إنشائه لجريدة المنتقد التي باتت تنتقد السياسة الاستعمارية وتدافع عن القضايا السياسية التي باتت تشغل النخب الجزائرية بمختلف اتجاهاتها، بتأثير من انعكاسات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨). ولهذا سوف نتناول بإيجاز مختلف هذه المواضيع، التي تناولها ابن باديس في خطبه العامة والخاصة وقام بالكتابة عنها في مختلف جرائده وصحفه، وقامت جرائد جمعية العلماء بتحليلها والتركيز على محتوياتها، لما تضمنته من مواقف صريحة لرائد النهضة الإصلاحية في الجزائر فيما بين (١٩٢٥-١٩٤٠).

وهدفنا من ذلك محاولة الإلمام بمساهمات ابن باديس السياسية في مختلف القضايا السياسية التي شغلت الرأي العام الجزائري المسلم، والتعرف على المواقف الجريئة لهذه الشخصية الدينية الصحفية في الوقت نفسه؛ فقبل أن يكون مصلحًا ومرشدًا دينيًا فهو أضحى رجلاً صحفيًا[٤٧] ينقل الأخبار والأحداث في عصره، ثم يورد مواقفه الشخصية ومواقف جمعية العلماء التي يعتبر رسميًا رئيسًا لها، ولهذا الشأن دخل في صراع مع الإدارة الاستعمارية في أكثر من موقف، وتمكن في نظرنا من الوصول بخطابه السياسي إلى الجماهير المسلمة وأثّر عليها أيمّا تأثير بحكم مكانته الدينية، موازيًا في ذلك نشاط حزب النجم،[٤٨] رغم بعض الاختلافات الطفيفة بينهما.

- تصدى ابن باديس لسياسة الاستعلاء على الشعب الجزائري وتحقيره من خلال الاحتفالات القرنية التي سخرت لها الإدارة الاستعمارية أموالاً طائلة من أجل الاحتفال بفرنسة الجزائر واستعباد الجزائريين، وهو الأمر الذي انبرت له صحافة العلماء الإصلاحيين وجريدة الشهاب، التي قادت حملة شعواء ضد هذا الاحتفال واعتبرته جريمة في حق السكان المسلمين الذين حرموا من خيرات بلدهم وحطمت مؤسساتها القضائية والسياسية، واعتبروا مجرد أهالي يخضعون للسيطرة الفرنسية. لذلك قاوم ابن باديس المخططات الاستعمارية ميدانيًا وفكريًا، ففي سنة ١٩٣٠م ندد بالحفلات الصاخبة التي قامت بها السلطة الفرنسية في العاصمة الجزائرية بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، واعتبر ذلك إهانة للجزائريين وأعاد تجديد النداء للعلماء والأئمة الجزائريين لتأسيس جمعية قوية لمقاومة الاستعمار والرد على أعوانه من الطرقيين والعلماء الرسميين، "لأن هذه الاحتفالات اصطبغت بحقد متواصل ضد الأمة الجزائرية وكرامة الجزائريين وشرفهم الوطني، وحاولت استفزازهم بإظهارها للحقد والكراهية والبغضاء ضد عروبة الجزائر وإسلامها، وهو ما عجّل بالعلماء الإصلاحيين من خلال مبادرة ابن باديس ومجهوداته ومقالاته الحماسية الرافضة لتحويل الجزائريين إلى فرنسيين مسحيين، بتأسيس جمعية إصلاحية شاملة وجمع شتات أنصار التجديد السلفي[٤٨] وتوحيد صفوفهم في جمعية العلماء المسلمين التي نشأت رسميًا في مايو ١٩٣١ برئاسة ابن باديس نفسه، الذي تمكن من إيصال أفكاره إلى جموع العلماء للنضال من أجل احترام هوية الشعب الجزائري.

- رفض سياسة التجنيس والاندماج، فلقد شنّ ابن باديس ومشايخ التيار الإصلاحي حربًا ضد المروجين لهذه السياسة، التي حاول أنصارها من الجزائريين وبمباركة الإدارة الاستعمارية إلى محاولة إدماج الجزائريين في الثقافة الفرنسية وإبقاء معظم فئات الشعب الجزائري خاضعة لسياسة الاستبداد التي شرعها المشرع الفرنسي من خلال القوانين الزجرية، خاصةً قانون الأنديجانا (الأهالي) وغيره من القوانين المعرقلة لنشاط العلماء الإصلاحيين أمثال قرار ميشال سنة ١٩٣٣ الذي يراقب نشاط العلماء، وقرار آخر لوزير الداخلية سنة ١٩٣٨ الذي يضيق على التعليم العربي الإسلامي الحر وغلق مدارس الجمعية.

- وردّ على بعض الاندماجيين الجزائريين الذين بحثوا عن الجزائر في كل شيء وأنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر – فلم يعثر لها على خبر وأخيرًا أشرقت عليه أنوار التجلي، فإذا به يصيح: فرنسا هي أنا.[٤٩] بمعنى أنه لم يجد سوى فرنسا، فكان رد ابن باديس قائلاً: "... إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ – وفتشنا في الحالة الحاضرة – فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة – متكونة وموجودة – كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا– ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها

الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة في الدنيا... ثمّ إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا بل هي بعيدة كل البعد عن فرنسا في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة..."."[٥٠]

- موقفة من الفتنة بين المسلمين واليهود في فاجعة قسنطينة، التي حدثت بين اليهود والمسلمين بسبب قيام أحد اليهود بسبّ المسلمين وإحداث الفوضى داخل جاليته ليمكرون بالمسلمين ومقدساتهم واستخدام الأسلحة لضرب السكان المسلمين ابتداءً من الخامس أوت ١٩٣٤، وهو الأمر الذي أثار حفيظة المسلمين وراحوا يدافعون عن أنفسهم بما توفر لهم من أسلحة بيضاء، بهذا الملخص كتب ابن باديس مقالاً هامًا في جريدة الشهاب يوضح لنا فيه ملابسات هذه الأحداث ويتحرى الحقيقة الصحفية والأدوار التي قام بها بمشاركة بعض النواب الممثلين للمسلمين بالمجلسين البلدي والعام لقسنطينة، وأيضًا ممثلي المجلس المالي محمد المصطفى ابن باديس.[٥١] حاولنا من خلال سرد هذه الأحداث توضيح قوّة التحليل الصحفي عند ابن باديس، في سرده لهذه الأحداث والتعمق فيه والاستشهاد بالأدلة الثابتة وليس الظنية، وهو ما التزم به الصحفي ابن باديس في جميع مقالاته المنشورة بالشهاب، والتي احتوت على مواضيع هامة تؤرخ لهذه الفترة التاريخية للجزائر، وتعتبر مقالاته مصدرًا موثوقًا بسبب أخلاقه الصحفية العالية في مواجهة صحافة المعمرين التي كانت تحاول الانتقاص من المسلمين.

- الدعوة للمشاركة في المؤتمر الإسلامي، كان ابن باديس صاحب فكرة انعقاد هذا المؤتمر، وصمّم على جمع شمل جميع النخب والتيارات الجزائرية في صف واحد من أجل مناقشة قضايا الجزائريين، ومطالبة الجبهة الشعبية ذات الاتجاه اليساري بضرورة الوفاء بعهودها للشعب الجزائري، وكان لزامًا على الجزائريين التحرك للحصول على هذه الحقوق، ولهذه الغاية كانت مساهمة ابن باديس وعلماء جمعية العلماء المسلمين بارزة وواضحة،[٥٢] حيث انعقد هذا المؤتمر بالعاصمة بقاعة الماجستيك (الأطلسي حاليًا) بتاريخ (١٩٣٦/٠٦/٠٧)، وكانت نظرة ابن باديس ذات بعد استراتيجي بترك الحكومة الفرنسية تعترف بهذا التجمع السياسي.

و جاء في دعوة ابن باديس للنخب والشخصيات وكل مَنْ يهمه الأمر بالمسألة الجزائرية، التي نشرتها الصحف الإصلاحية ومعظم جرائد النخب الجزائرية بمختلف اتجاهاتها ما يلي: "أن على رجال السياسة الجزائريين والعلماء والنواب والقضاة والمدرسين الإدلاء برأيهم في تجديد النظام السياسي للمسلمين الجزائريين، وذلك بانعقاد مؤتمر ضروري وعاجل سواء في العاصمة أو في أي مكان آخر يجري فيه النقاش الواسع يستهدف من وجهة النظر السياسية البحث في مصير ستة ملايين خلق يعتبرون فرنسيين حينا، لكن دون أن يتمتعوا بالحقوق اللازمة لهذه الصفة ويعاملون أحيانًا أخر كأجانب في وطنهم".[٥٣] وعبرت الشهاب من جهتها باعتزازها بهذا اليوم التاريخي الذي اجتمع فيه الشعب الجزائري العظيم متضامنًا ومتحدًا وأيّدت عقد هذا المؤتمر لمناقشة قضايا الجزائريين والتركيز على مطالب هوية الجزائريين من دين ولغة ووجود أمة جزائرية ذات خصوصيات، والمطالبة بالمساواة الحقيقية دون التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية.[٥٤]

ورغم الانتقادات التي وجهت لابن باديس في هذا الشأن، ورأوا فيها انحرافًا لرسالة المنتقد والشهاب، إنما كانت أهداف ابن باديس تحقيق جملة من المطالب، أولها توحيد النخب الجزائرية وثانيها الضغط على الإدارة الفرنسية لتستجيب لمطالب الجزائريين، وعندما فشل المؤتمر في تحقيق أهدافه بسبب غطرسة الحكومة الفرنسية، غير ابن باديس من مواقفه، وأصبح يكتب مقالات متشددة ينقد فيه تصرفات الإدارة الاستعمارية جهرًا في صحفه وخطبه.[٥٥] وبالتالي تغير أسلوبه الصحفي وبدأ يتشدد في لوم فرنسا ويرفض مؤازرته لها، ومن ذلك إصداره بيانات للشعب الجزائري برفض الاحتفال بمرور قرن على احتلال قسنطينة سنة ١٩٣٧ وأيضًا رفضه إصدار بيان مساندة فرنسا في الحرب العالمية الثانية؛ حيث عطل صحيفة الشهاب لكي لا يقع في الحرج، وأيضًا خسر أحد العلماء الإصلاحيين، الشيخ العقبي لتأييده لبرقية التأييد لفرنسا، ويعبر ذلك في نظرنا قوّة تمسك ابن باديس بمبادئه وقرارات جمعية العلماء المسلمين التي صوتت لصالح رفض التأييد.[٥٦]

٤/٣- الصعوبات التي واجهت نشاط ابن باديس الصحفي

لقد واجه ابن باديس منذ بدية نشاطه الصحافي عراقيل قانونية جمة من قبل الإدارة الاستعمارية، حينما حاولت هذه الإدارة الاستناد على مختلف تشريعاته المستبدة في حق الجزائريين من خلال قانون الأنديجانا الذي يمارس ضغوطًا على النشاط السياسي ومنع التجمعات وفرض عقوبات غير موجودة في القانون الجنائي الفرنسي؛ خاصةً في مجال مراقبة الديانة الإسلامية بصدور عدّة قوانين زجرية، منها التضييق على التعليم الحر من خلال مرسوم (٢٧ سبتمبر ١٩٠٧) المنبثق عن قانون (٠١ جويلية ١٩٠١) الخاص بتنظيم الجمعيات والتي حددت بإخضاع الشؤون الدينية للحكومة العامة، والتي أنشأت هيئة استشارية للديانة الإسلامية وفق قرار ١٩٣٣، مما جعل ابن باديس والتيار الإصلاحي عمومًا ينتقد هذا التصرف القانوني الاستبدادي،[٥٧] وواصل المشرع الفرنسي أيضًا بفرض المزيد من الرقابة والضغوط على النشاط الصحفي لابن باديس ووضع العراقيل أمام نشاط جمعية العلماء

المسلمين من خلال المواجهة المباشرة للإدارة الفرنسية من خلال ممثليها في الجزائر.

حيث سلطت هذه الإدارة عدّة إجراءات على نشاط التيار الإصلاحي عمومًا من خلال منشور ميشال الصادر عام ١٩٣٣ المعارض لحرية التعليم العربي والوعظ بالمساجد، وأيضًا قرار "رنييه" سنة ١٩٣٥ الذي يضيق على نشاط العلماء وكذلك قرار وزير الداخلية "شاطون" سنة ١٩٣٨ الذي يضيق على التعليم العربي الحر، وهو ما جعل صحافة ابن باديس تدخل في صراع مع الإدارة الاستعمارية.[٥٨] وحتى يتجنب الإجراءات العقابية للحكم الاستعماري التي كان يجسدها المنع المتكرر لصدور الجرائد ومنع تعليم اللغة العربية، فإن ابن باديس، حاول مراوغة الإدارة الاستعمارية، من خلال نشاطه المؤيد للجبهة الشعبية ومسايرة بعض ما كانت تدعو إليه بشكل حذر من أجل مصلحة هوية الجزائريين بدعوة الحكومة الفرنسية إلى احترام الانتماء العربي الإسلامي للشعب الجزائري. والدفاع عن الوطن بواسطة التعليم ونشر الثقافة العربية الإسلامية.

وفي إطار مواجهة ابن باديس للسياسة الاستعمارية، واجهته مشاكل داخلية أخرى، من خلال الحملات الصحفية لجمعية أهل السنة والجماعة التي انشقت عن جمعية العلماء وتحالفت مع شيوخ الطرقية الذين تحالف بعضهم مع الإدارة الاستعمارية من أجل إرباك صحافته وإفشال خطبه لدى العامة من السكان المسلمين.[٥٩] وحاول بعض الطرقيين إسكات صوت الشهاب التي كانت تكتب مقالات بأسماء مستعارة، من خلال تكليف أحد العملاء بمحاولة اغتيال الشيخ ابن باديس بقسنطينة، ورغم اكتشاف الحقيقة بادعاء الجاني أنه كان مدفوعًا من قبل بعض مشايخ الطرق، ولكن الموضوع في نظرنا ظل غامضًا ولم تنشر الاستعلامات الفرنسية أخبارًا دقيقة عن الموضوع، وإنما جل المعلومات استقيت من بعض الصحف الإصلاحية، والذي يُهمنا في الموضوع أن جهاز الاستعلامات الفرنسي كان يعرف الكثير عن هذه الحادثة، وقد يكون وراء محاولة تعكير الجو بين السكان المسلمين المنقسمين بين الطرق الصوفية والتيار الإصلاحي، ويبقى هذا التحليل من خلال القراءات المتباينة للمعاصرين لهذا الحدث.

فإن ابن باديس لم يقطع صلته النهائية بهذه الطرق، وإنما حمّل الإدارة الاستعمارية مسؤولية هذه الفتن بسبب تشجيع بعض المنتسبين الجهال لبعض الطرق الضالة، وقد يتصرف بعضهم بجهالة وحماقة في تعكير جو الأخوّة الإسلامية، بمحاربة الفكر الإصلاحي الذي يمارسه ابن باديس من خلال مقالاته الصحفية المناوئة للفكر الحلولي والتصوف البعيد عن الإسلام السلفي، وتعاون بعضهم مع الاستعمار الفرنسي ولكثرة البدع والخرافات التي ألصقوها بالدين الإسلامي.[٦٠] وأن ابن باديس لم يحارب التصوف ومشايخ التصوف في نظرنا، وإنما المشاحنات السياسية والأنانية هي التي حرّكت بعض الأحقاد بين جمعية العلماء وبعض الطرق الصوفية.

ولهذا الغرض كانت تلجأ الإدارة الاستعمارية، "بإيعاز من بعض متطرفي المعمرين والشخصيات السياسية المعادية لهوية الشعب الجزائري، إلى حل وغلق هذه الجرائد وفرض الغرامات عليها"،[٦١] من أجل إسكات صوت ابن باديس الصحفي الذي بات يضيق الخناق عليها ويكشف بعض أساليبها والمتعاملين معها. وكانت تعرقل إنشاء الصحف العربية الإسلامية بحجة أنها لا تخضع للقانون الفرنسي، خاصةً قانون ١٨٨١ الذي يعتبرها أجنبية، وبالتالي فانعكاسات السياسة الاستعمارية المطبقة على التيار الوطني الذي كان يقوده النجم ثمّ حزب الشعب والتيار الإصلاحي الذي قاده ابن باديس وجمعية العلماء، كانت مخيبة للنشاط الصحفي في الجزائر.

وشكلت أيضًا سنة ١٩٣٣ أزمة حقيقية للنخب الجزائرية العاملة في الميدان الصحافي، انعكاسات اقتصادية واجتماعية خانقة على الجزائريين، وبالتالي تأثرت الحركة الإصلاحية بهذه الأزمة المادية التي جعلت ابن باديس يحوّل جريدته من الأسبوعية إلى الشهرية، ويجد صعوبة في تحمل مصاريف الطبع والتوزيع،[٦٢] مما جعل الحركة الإصلاحية نفسها تتأثر بهذه الإجراءات الاستعمارية والصعوبات الاقتصادية. مما يجعلنا نستخلص؛ بأن هذه الصعوبات قد أثّرت على مسيرة العمل الصحافي لابن باديس، وأيضًا صحافة جمعية العلماء التي تعرضت هي الأخرى لمشاكل عويصة، كانت نتيجتها تعطيل العديد من صحفها والضغط على بعض المشايخ، مثل محاولة الإدارة استفزاز الشيخ الطيب العقبي باغتيال الشيخ كحول، ومحاولة تلفيق التهم له من أجل تخويف التيار الإصلاحي ومنعه من مواصلة مسيرته الإصلاحية في الجزائر.

(٤) تقييم التجربة الإعلامية لابن باديس وصحافة التيار الإصلاحي في الجزائر

إنّ تتبعنا للنشاط الصحفي لابن باديس منذ العشرينيات من القرن العشرين ومساهماته الكثيفة في الصحف التي أنشأها مثل المنتقد والشهاب، وأيضًا مقالاته العديدة في صحف ومجلاّت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تثبت لنا جدارة هذه الشخصية الإصلاحية في الحقل الصحفي، رغم المسؤوليات الملقاة على عاتقه، وتتضح قوّة نشاط هذا الرجل بالتتبع الكثيف لأجهزة الاستعلامات الفرنسية لمقالاته وتحليلها ضمن التقارير السرية التي كانت تبعث بها هذه الأجهزة إلى مسؤوليها.[٦٣]

وفي إطار محاولتنا المتواضعة بتقييم تجربة العمل الصحفي لهذه الشخصية الوطنية، تبرز أمامنا عبقرية ابن باديس الإعلامية، بحيث لم يكن الشيخ بن باديس صحفيًا تقليديًا، وإنما كان قلمه هو سلاحه، ولأن جريدة الشهاب، غطّت الكثير من القضايا الصحفية التي شغلت بال الرأي المسلم، وسبق لنا أن تطرقنا لبعضها، والذي يُهمنا من ذلك، هو قدرة ابن باديس على معرفة تفاصيل الأحداث قبل الكتابة عنها بحيث كان يتحرى الصدق وعدم

نسب التهم للآخرين، رغم قوّة الحجج، فمثلاً تغطيته للعديد من الأحداث المباشرة بالصراع بين الجمعية والطرقيين، كانت تبدو في كتاباته عدم الانجراف في النقد الجارح أو السب المتبادل، حيث كانت تظهر في كتاباته معاني الإصلاح وتوجهه الأخلاقي نحو إصلاح المجتمع.[٦٤]

واهتمت صحافة ابن باديس أيضًا بالعديد من القضايا الوطنية والدولية التي شغلت الجزائريين، فقد ركز ابن باديس على قضايا التعليم، حيث ساهمت الصحافة الإصلاحية في نشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، وتبصير العقول، وقد ورد في العديد من مقالات ابن باديس التي نشرت بالشهاب والبصائر، موضوعات خاصة بتفسير آيات قرآنية تدعو للتعليم وتمقت الجهل، وطالب في مقالاته أيضًا فرنسا بفتح مجال التعليم أمام الجزائريين والسماح لهم بتعلم دينهم ولغتهم العربية، ذلك ما ورد في تحليلات الأجهزة الاستعلاماتية الفرنسية لمقالاته في هذا الموضوع.[٦٥]

أما على المستوى الدولي، فكانت كتابات ابن باديس واقعية اتجاه القضايا العربية والإسلامية، حيث كانت له وجهات مغايرة من نظام الخلافة وكان يحبذ اعتماد الأقطار الإسلامية على نفسها والتخلص من الاستعمار وبناء أوطان قوية، مثل مقالاته التي تتحدث عن الجنسية والوطنية ومعاداة الإدماج، وبالتالي فصّل في هذه الموضوعات تفصيلاً، واعتبر أن الجزائر جزءًا من العالم العربي الإسلامي ولكنها أقرب لمحيطها المغاربي للتاريخ المشترك والمصير الواحد، مما يجعلنا ندرك أهمية الكتابات الصحفية عند هذا الرجل الذي لم يترك موضوعًا من الموضوعات التي شغلت الرأي العام الجزائري والإسلامي.[٦٦]

أما في مجال مواجهته للسياسة الاستعمارية، فكانت مقالاته ذات شأن آخر في الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية للجزائر وحدود التراب الجزائري، وباتت صحف ابن باديس وجرائد جمعية العلماء منابر حرة في مواجهة السياسة الفرنسية، مما جعل هذه الأخير تلجأ لغلق هذه الجرائد وتعطيلها ووضع العراقيل المختلفة أمامها، حيث يقول سعد الله في هذا الموضوع: "إن هدف العلماء البعيد كان سياسيًا، سواء أرادوا ذلك صراحة أو لم يريدوه، حيث خضع العلماء خلال الثلاثينيات والأربعينيات إلى نفس المعاملة التي خضع لها الشيوعيون من جانب الإدارة الاستعمارية..."."[٦٧]

ويدل ذلك في نظرنا إلى قوّة الحراك السياسي الذي جعل صحافة التيار الإصلاحي تنجرف نحو القضايا السياسية وتدخل في صراع قوي مع الإدارة الاستعمارية، باعتبارها تمثل عمق المجتمع الجزائري المسلم الذي أصبح يُنظر إليها، بأنها تعبر عن أفكاره ومبادئه وحظيت بمقروئية معتبرة، حيث كانت مجلة الشهاب وحدها تسحب ما يزيد عن (٢٠٠٠) نسخة وجريدة الإصلاح أكثر من (٣٠٠٠) نسخة، وهو ما يمثل أيضًا قوّة الصحافة الإصلاحية على وجه الخصوص والعربية عمومًا، وهي حسب الباحث "تركي" بأن الصحافة العربية الوطنية في هذه الفترة، كان لها تاريخًا مشرفًا تفتخر به لروح المقاومة ضد مختلف المصاعب التي واجهتها.[٦٨]

وبالتالي كانت تجربة ابن باديس فريدة من نوعها بتبنيه للعمل الصحافي منذ إنشاء جريدة الشهاب التي كانت تمثل أفكار ابن باديس وقناعاته الإصلاحية قبل أن تمثل التيار الإصلاحي برمته، ثم قامت جمعية العلماء المسلمين بتأسيس جرائد عدة أمثال السنة والشريعة والصراط، والبصائر ولم تفشل رغم تعرضها للغلق من قبل الإدارة الاستعمارية.[٦٩] ولذلك نستخلص العبر من هذه الشخصية الإصلاحية التي مارست العمل الصحافي كوسيلة نبيلة للدفاع عن الشخصية الوطنية وهوية الجزائريين الضاربة في أعماق التاريخ، بحيث ظل ابن باديس يجاهد بفكره ولسانه وقلمه في جبهات عديدة، في مجال التعليم والصحافة والسياسة والإصلاح الديني والاجتماعي والدعوة إلى الإيمان الصحيح، ومقاومة البدع والخرافات والأوهام، ومحاربة الظلم والفساد، وأشكال الاضطهاد، والوقوف في وجه القوانين الجائرة.

خاتمة

توفّي الشيخ عبد الحميد أبن باديس في سنة ١٩٤٠، بعد حياة حافلة بالعطاء والجهاد والدعوة مخلّفًا وراءه إرثًا صحافيًا معتبرًا من خلال الجرائد والمجلات التي تركها لنا، ننبع منها ونستفيد من تجربته الإعلامية الحكيمة والسديدة والمعبرة عن نضج الصحفي ابن باديس ومهاراته والتقنيات البسيطة المستعملة في إيضاح الحقائق التاريخية والجغرافية للقطر الجزائري ومواقفه المختلفة من القضايا التي طرحت في وقته. وفرض نفسه على عالم الصحافة في فترة العشرينيات والثلاثينيات، وصار رائدًا من رواد الصحافة العربية الحديثة وأبرز معالمها على أسس متينة من الإيمان بالمبادئ الإصلاحية والوطنية وتقاليد الصحافية العالية.

الهَوامِشُ:

(١) إسماعيل معراف، **الإعلام حقائق وأبعاد**، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ٢٠٠٧، ص ١١- ١٣.

(٢) راجع: زهير إحدادن، **مدخل لوسائل الإعلام والاتصال**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٤، ٢٠٠٧، ص ٤٠- ٤٦ وأيضًا:

Zahir Ihadeden, *Histoire de la Presse Indigène En Algérie*, des Origines jusqu'en1930, Enal, Alger 1983, pp. 35- 43.

وضع إحدادن في جدول رقم (٣) تطور الصحافة الاستعمارية في الجزائر ما بين ١٨٨٣ و ١٩٢٠ ومحاولة الإدارة الاستعمارية توجيه الرأي العام الجزائري نحو مسألة فرنسة الجزائر.

(٣) محمد بليل، **تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين**، ما بين ١٨٨١ و ١٩١٤، القطاع الوهراني أنموذجًا، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، ٢٠٠٦، ص ٣-١٤.

(٤) عباسة الجيلالي، **سلطة الصحافة في الجزائر**، الحرية، الرقابة، التعتيم، مؤسسة الجزائر، تملسان ودار الغرب للنشر والتوزيع، وهران ٢٠٠٢، ص ٧٣.

(٥) سعد الله أبو القاسم، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ١٩٠٠-١٩٣٠، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت .لبنان، ط٤، ١٩٩٢، ص١٣٣-١٣٤.

(٦) **راجع: تحليل الأستاذ إحدادن لواقع الصحافة الجزائرية الأهلية وتطورها:**

Zahir Ihadeden, op cit, pp.195 – 200.

(7) Mahfoud Kaddache, *Histoire du Nationalisme Algérien*, Question Nationale et Politique Algérienne 1919- 1951, TI, ed société nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1980. Pp. 73 -74.

(8) AGERON (CH .R): *Histoire de L'Algérie contemporaine* "que, sais je", PUF; PARIS, p.72.

(9) Ihdaden (Z); presse indigene ,op.cit pp. 195 – 200.

(١٠)انظر زهير إحدادن، **مدخل لعلوم الإعلام والاتصال**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٤، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٩١– ٩٤.

(11) Zahir Ihdaden, presse indigène, op.cit pp. 169 – 158.

(١٢) عباسة الجيلالي، مرجع سابق، ص ٧٥- ٧٦.

(١٣) إسماعيل معراف، مرجع سابق، ص ٣٨- ٣٩.

(١٤) الجيلالي عباسة، مرجع سابق، ص ٨٠-٨١.

(15) Amar hellal, *le Mouvement réformiste Algérien*, les hommes et L'Histoire (1831- 1957), OPU, Alger 2002, «chapitre II les Influences culturelles et politique», pp. 57- 90

(١٦)عبد الرحمان بن ابراهيم بن العقون، **الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر**، الفترة الأولى ١٩٢٠-١٩٣٦، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤، ص١٥٦ -١٥٧.

(١٧) المرجع نفسه، ص١٥٨- ١٥٩.

(١٨)انظر في هذا الصدد، تحاليل جهاز الاستعلامات الفرنسي لأنشطة التيار الإصلاحي وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في علب عديدة لأرشيف فيما وراء البحر:

Centre d'archives d'Outre mer, B N° 8314/68, Constantine série continuée, Activité des Oulémas Et BN° 8 cab /23 gouvernement Général de l'Algérie, Rapports sur les Oulémas.

(١٩)عمار طالبي، **عبد الحميد ابن باديس**، دار اليقظة، مج١، ج٤، دمشق ١٩٦٨، ص٧٢. وانظر أيضًا: محمد الميلي، **ابن باديس وعروبة الجزائر**، ط٢، ساوات الجزائر، ١٩٨٠، ص٩ – ١٢.

(٢٠)مولود عويمر، **ابن باديس وأنشطته**، موقع إليكتروني، الدخول يوم (٢٠١٣/٠٣/٠٨).

(٢١) انظر: جهاز الاستعلامات الفرنسي حول نشاط ابن باديس والعلماء:

Archive Nationale de France B, N° 4AG Question Musulmane.

(٢٢) الشهاب لشهري جوان وجويلية ١٩٣٨، ص٢٨٩.

(23) Ali Mered, *le réformisme Musulman En Algérie* de 1925à 1940, essai d'histoire religieuse et sociale, les Editions El-Hikma; Alger 1999, pp. 75 -77.

(٢٤)سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٥، ١٨٣٠-١٩٥٤، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٩٩٨، ص ٣١١- ٣١٢.

(٢٥) جريدة الشرق اليومي، **ابن باديس أشهر صحفي**، (٠٣-٠٥- ٢٠١٠).

(٢٦)تليلاني أحسن، **جريدة النجاح**، حقيقتها، دورها (دراسة تحليلية في أول جريدة في تاريخ الصحافة العربية الجزائرية والمغاربية، قسنطينة سنوات ١٩١٩-١٩٥٦، إصدارات وزارة الثقافة الجزائرية، ٢٠٠٧، ص٢٧ ، ص ٣٢- ٣٣.

(٢٧)المرجع نفسه، ص٣٧، وأيضًا انظر: محفوظ قداش وآخرون، **المقاومة السياسية**، ١٩٠٠- ١٩٥٤، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٧، الجزائر، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢٨)**محمد البشير الإبراهيمي**، (١٩٥٤- ١٩٥٦) تقديم طالب الإبراهيمي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ج٥، ١٩٩٧، ص ١٦٦-١٦٧. وانظر أيضًا: تليلاني أحسن، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢٩) سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٥، مرجع سابق، ص٢٥٣.

(٣٠)مصلحة الأرشيف لولاية وهران، قيام أجهزة الاستعلامات الفرنسية بتحليل الصحافة الإسلامية والوطنية وتبليغ المسؤولين الفرنسيين ببعض تجاوزات هذه الصحف وتلفيق التهم الواهية، بهدف تعطيلها ومنعها من الصدور انظر:

D.A.W.O,B N°2261 Analyse de la Presse Musulmane

(٣١)نقلاً عن: موقع ابن باديس نات (www.Benbadis.net)، بها حاج سليمان: "**ابن باديس والعمل الإعلامي**، (٢٠٠٦/٠٩/٢٤): تاريخ الدخول(٢٠١٣/٠٣/٨)

(32) Ali Mered, op cit, pp. 79- 98 et Aussi Zahir Ihdaden, presse indigène, op.cit, pp. 362 -378.

(٣٣)سيف الإسلام الزبير، **تاريخ الصحافة في الجزائر**، ج٦، الصحافة العربية في الجزائر بين الحربين، ١٩٢٠-١٩٤٠، طبعة المنستر، د.ت، ص ٤-٥.

(٣٤) نقلاً عن: موقع ابن باديس نات، بها حاج سليمان، مرجع سابق.

(٣٥)البصائر، العدد(١)، بتاريخ ١ شوال المبارك ١٣٥٤هـ، الموافق ١٢/٢٧/ ١٩٣٥، ص١.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧)سيف الإسلام الزبير، **تاريخ الصحافة في الجزائر**، ج٦، مرجع سابق، ص ٩، وص ١٨٩-١٩٤.

(38) CAOM, 5I/88 département d'Oran.

(٣٩) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "تقرير التعليم المسجدي ألقاه الأستاذ ابن باديس في مؤتمر الجمعية سنة ١٩٣٥، دار المعرفة ٢٠٠٩، ص٨١-٨٣.

(٤٠)تركي رابح عمامرة، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس**، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط٥،٢٠٠١، ص٢٧٧، نقلاً عن: الشهاب، ج١، م ١٤، عدد مارس ١٩٣٩، ص١، منشورات أناب (ANEP).

(٤١)المرجع نفسه، ص٢٧٥ -٢٧٧. نقلاً عن: الشهاب، ج١، م١٤، عدد فبراير١٩٣٩، ص١ وعدد مارس ١٩٣٩، ص١.

(٤٢) محمد الميلي، مرجع سابق، ص ١٥٠- ١٥٣.

(٤٣)انظر: تقارير أجهزة الاستعلامات الفرنسية حول نشاط مشايخ الطرق بالجزائر ومستغانم بمصلحة الأرشيف لولاية (Série F N° 24)، وأيضًا علبة رقم (Série Serie I) الخاصة بالشخصيات الدينية وهران، رقم العلبة ٤٤٧٤. وأيضًا مركز الأرشيف في ما وراء البحر بإكس بروفانس، السلسلة المتواصلة بعمالة وهران الخاصة بتتبع مشايخ الطرقيين بمنطقة مستغانم (5I/152, département d'Oran).

(٤٤)جمعية العلماء، سجل مؤتمر، "**موقف جمعية العلماء المسلمين من الطرق**"، مصدر سابق، ص٤٧- ٤٩.

(٤٥)انظر: العديد من الدراسات التي تناولت هذا الموضوع بشكل تفصيلي منها:- الشيخ سيدي الحاج عدة بن تونس، **تنبيه لقراء إلى كفاح مجلة المرشد الغراء**، ج١، جمع وطبع وتحقيق رشيد محمد الهادي، ويحي بنقة، "فصل عن دعاية المصلحين"، المطبعة العلاوية بمستغانمى، ١٩٨٣، ص ١٦٧ - ١٧٧.- الشيخ بوشيخي: "**صحافة التيارين الإصلاحي والتقليدي، البصائر والبلاغ نموذجًا**" مجلة عصور، مخبر البحث التاريخي (مصادر وتراجم)، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، العدد (١٦)، بتاريخ جوان – ديسمبر ٢٠١٠، ص ٦٧- ٩١. - أحمد حمدي: "جريدة الجحيم" موقع ابن باديس نات، الدخول يوم (٢٠١٣/٠٣/٠٩).- بن إبراهيم ابن العقون، "**حركة ذات حدين متناقضتين**"، مصدر سابق، ص٢٨٣ - ٢٩٩.

(٤٦)محمد بليل: "**التيارات الثقافية في مستغانم خلال الفترة الاستعمارية ما بين ١٩٠٠ و١٩٥٤**"، مجلة دراسات، دورية تصدر عن كلية الآداب واللغات بجامعة ابن خلدون– تيارت، ص ١٢٢- ١٣٠.

(٤٧)محمد الميلي، فصل عن "**ابن باديس صحفيًا، فاجعة قسنطينة**"، مرجع سابق، ص ١٠٦– ١٢٦.

(٤٨)إبراهيم مهديد، **نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري (١٩٢٦-١٩٣٩)**، الاستراتيجية الوطنية وتأصيل الفكر الاستقلالي، منشورات دار الأديب، وهران، ٢٠٠٧، ص١٥- ٤٣.

(٤٩) تركي رابح، مرجع سابق، ص٢٢٨، وانظر أيضًا:

Ferhat Abbas, le jeune Algérien (1930) suivie de Rapport Au Maréchal Pétain (avril, 1941), ed Alger livres Editions, 2011, pp. 98 – 104.

(٥٠)تركي رابح، مرجع سابق، ص٢٢٨، نقلاً عن: الشهاب، ج٩، عدد نوفمبر١٩٣٧، ص٤٤٥.

(٥١)محمد الميلي: "**ابن باديس صحفيًا، فاجعة قسنطينة**"، مرجع سابق، ص ١٠٦-١٢٦.

(٥٢)عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، **إمام الجزائر، عبد الحميد ابن باديس**، دار الأمة، ٢٠٠٧، ص ١٢٣ – ١٢٤.

(53) Journal (LA) défense N°17 Année, janvier 1936.

(٥٤)الشهاب، ج٤، م١٢ جوان ١٩٣٦، ص ٢١٧، وأيضًا محفوظات ولاية مستغانم، ووثائق الحركة الوطنية وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٣١-١٩٤٤، ط٢، مطبوعات مديرية الوثائق لولاية قسنطينة، ١٩٨٢، ص٤.

(٥٥) عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، مرجع سابق ١٢٦-١٣٥.

(٥٦) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(57) C.A.O.M,B, N° 8 cab/23, gouvernement de l'Algérie, Renseignements sur les Oulémas.

(٥٨)سعد الله أبو القاسم، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ١٩٠٠-١٩٣٠، ج٢، مرجع سابق، ص ٩٥- ٩٦.

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٩٦.

(٦٠) رابح تركي عمامرة، مرجع سابق، ص ٣٣٧.

(٦١) الجيلالي عباسة، المرجع نفسه، ص ٨٤ – ٨٨.

(٦٢) الشروق ١٥ ديسمبر ٢٠١٢.

(63) CAOM, serie H B° 1, Analyse de la Presse Indigène, ach chihab, mars 1938.

(٦٤) رابح تركي، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(65) CAOM,serie H B° 13, Analyse de la Presse, Bulletin Mensuel de Presse indigène d'Algérie.

(66) Ibid, ach chihab ,décembre 1938, Panarabisme.

وأيضًا، محمد بليل: "**تصورات وأفكار ابن باديس حول وحدة الشمال الإفريقي**"، مجلة عصور الجديدة، تصدر عن مختبر تاريخ الجزائر بجمعة وهران ربيع ٢٠١٢، العدد الخامس، ص ٢٤٤-٢٢٢.

(٦٧) سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، مرجع سابق، ص٨٧.

(٦٨) تركي رابح، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(69) Ali Mered, op. cit, pp. ١٣٣ - ١٣٢.